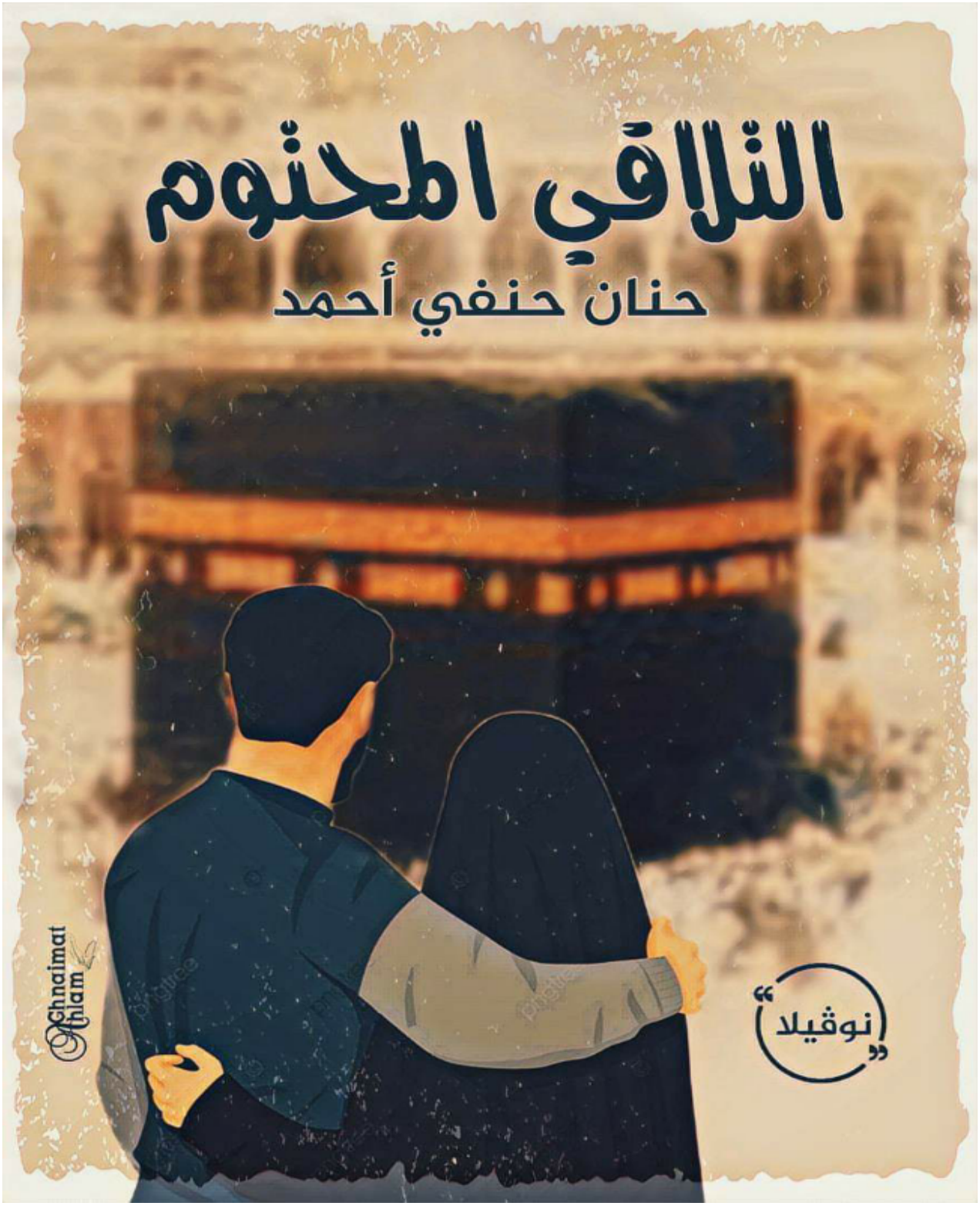
التلاقي المحتوم
حنان حنفي أحمد
Ghnaimat Ahlam
نوفيلا

# التلاقى المحتوم

## بقلم

## حنان حنفي أحمد

سرداق عزاء كبير، متراص فيه كراسي على الجانبين، يصدح منه صوت القرآن الكريم ليعم على المكان السكينة والطمأنينة، وحده فقط شاب في منتصف العشرينات من عمره، لا يشعر بأية سكينة، يبكي في صمت، لم يستعب بعد أن ذلك العزاء هو عزاء والدته الحبيبة، التي لم يسكن قلبه غيرها، ولم تعرف روحه السكينة والطمأنينة إلا في حضنها، فكر كيف سيعوض ذلك الحضن، من أين سيلتمس الأمان، ردد في نفسه: وداعا لراحة البال، وداعا لكل شيء جميل من بعد رحيلك ياأمي.

حثه جاره على النهوض ليسلم على بعض الناس الذين جاءوا ليشاطروه حزنه، كانت كلماتهم لها وقع بغيض على مسامعه، لم يعد يحتمل سماع كلمات نحو :(شد حيلك، كلنا لها، ذهبت عند الذي أرحم مني ومنك).

توقف القرآن الكريم عند بدء آذان العشاء، وبعدها بقليل جاء ثلاثة أشخاص، اقترب أكبرهم منه وقال بحزن:

ـ البقاء لله يا يحيى، لقد حزنا على الغالية كثيرا.

كانوا الثلاثة هم اخواله، الذين لم يكلف أحدهم خاطره ليزورها أثناء مرضها، بالرغم من سؤالها عنهم المستميت، كأنها أرادت توديعهم قبل أن ترحل للأبد.

لم يستطع يحيى أن يتحمل ما يحدث فوقف جانبا وحده ليطلق السراح لدموعه الحبيسة، ومن وسط دموعه لمح امرأة، لم يعرف من أين ظهرت ، نظرت له بشفقة وهي تمر من أمامه لتدلف بعدها إلى المسجد الملاصق لسرداق العزاء، كانت نظرة سريعة لكنها كانت كفيلة أن تشغله، اقترب منه صديقه زياد وقال له:

ـ هناك بعض الأشخاص يسألون عنك.

لم يكن يحيى ينظر له، بل ينظر بالجهة الأخرى بدهشة كبيرة،

فقال زياد:

- يا يحيى، ماذا بك؟

ابتلع يحيى ريقه بصعوبة وقال:

- هل رأيتها؟

- من؟

- تلك المرأة التي مرت من هنا قبل قليل

- لا لم أرى أحدا، هيا بنا الناس تنتظرك لتعزيك

قال يحيى وكأنه لم يسمعه:

- لقد كانت تشبهها كثيرا

- من تشبه من؟

- تلك المرأة كانت تشبه أمي كثيرا، لها نفس النظرة والطلة

أشفق زياد على صديقه الذي لم يستعب صدمة وفاة والدته بعد، ربت على كتفه بحنان وقال:

- لا تفعل بنفسك ذلك يا صديقي، كن قويا كما عاهدتك دوما

- يا زياد أنا بخير.. أقصد أنا..

- أفهم.. أفهم.. هيا بنا الآن.

أخذه زياد من يده ومشى يحيى إلى جانبه في استسلام، ثم وقف إلى جانب أقاربه وجيرانه يأخذ معهم العزاء وعينيه لم تبارح مدخل المسجد قط.

***

وضع يحيى رأسه فوق حجر والدته، شعر بالراحة تسري في

أوصاله، دعا ربه أن يبارك له فيها ويرزقها الصحة والعافية، مسدت على رأسه في حنان وقالت له:

ـ ماذا رأيت تلك المرة في منامك لتنتفض هكذا؟

نهض واحتضنها وقال:

ـ كابوس سيء

أطالت النظر إلى عينيه، حاولت أن تستشف ما رآه ببصيرتها المعهودة، ثم قالت:

ـ يحيى أنت أصبحت رجل، وأنا لن أدم لك في حياتك، عليك أن تضع تلك الحقيقة نصب عينيك

انتفض وقال:

ـ لا تقولي ذلك أرجوكِ أنا لن احتمل فراقك أبدا.

نظرت له والدموع تملأ عينيها حزنا على حاله، ثم ضمته إليها بحنان، استسلم لذلك الحضن الدافىء وحاول نسيان ذلك الكابوس، ثم لمح بطرف عينه امرأة، ترك والدته والتف بكامل جسده لتلك المرأة، اندهش عندما وجدها هي نفسها من رآها بالعزاء، حدث نفسه:

ـ مهلا ألم يكن ذلك مجرد كابوس؟

نظر ناحية والدته فلم يجدها، ارتعب وسأل تلك المرأة:

ـ أين أمي، ومن أنتِ، وكيف دخلتِ إلى منزلنا؟

قالت له:

ـ والدتك ماتت

صرخ معترضا:

- لا هذا خطأ، هي كانت معي منذ قليل، لازال أثر حضنها لي يسري في أوصالي

- هي ماتت، يجب عليك أن تصدق حتى تتخطى تلك الحالة التي أنت عليها

صرخ بعصبية:

- لم تمت، لم تمت

- ألم تخبرك أنها لن يدم وجودها بحياتك

- بلى بالفعل، هل سمعتيها وهي تقول ذلك؟

- أنا أعرف كل شيء يخصها ويخصك، وكأنني أحيا معكما

سألها بدهشة:

- من أنتِ؟

اختفت فجأة من أمامه فبحث عنها بأرجاء المنزل وعندما لم يجدها، شعر بالتيه فجلس على الأريكة التي كانت تجلس عليها والدته منذ قليل وحاول أن يتذكر تلك اللحظات التي كان ينعم بالحنان في حضنها.

استيقظ يحيى والتقط أنفاسه بصعوبة وردد:

- اللهم اجعله خير.

تناهى لمسامعه آذان الفجر فنهض ليصلي، وأثناء سجوده دعا لوالدته بالرحمة والمغفرة، وبعد انتهائه تراءى له حلمه الذي رآه قبل قليل، تحير من تلك المرأة التي لم يراها سوى مرة واحدة وشغلت تفكيره إلى درجة رؤيته لها في منامه.

في اليوم التالي جائه هاتف من والده، ايقن أنه علم بوفاة والدته فهو لم يكن يتصل عليه إلا نادرا، بادره والده بسؤاله:

- كيف لم تخبرني بوفاة والدتك، وأعلم بذلك عن طريق الفيس بوك مثل الآخرين؟!

- ولماذا أخبرك، لا تقنعني أنك مهتم، لأنك لم تكن مهتم بوجودنا من قبل

- هذا كلام والدتك وليس كلامك

- بلى، لأنها كانت على حق، وفضلا لا تتحدث عنها مرة أخرى بأي شكل من الأشكال

- يا يحيى..

قاطعه قائلا:

- شكرا لاتصالك.

قالها ثم أغلق الهاتف.

بعدها زادته تلك المكالمة حزنا على حزن، تذكر مواقف من طفولته عندما كان يشاهد مشاحنات أبويه، ثم سفر والده للعمل بالخارج ولم يكن يأتي لزيارتهم سوى شهر واحد في العام، ومع الأسف كان يتخلل هذا الشهر المشاحنات الكثيرة، استقر والده بالخارج وتزوج أيضا هناك وأنجب ولم يعد يأتي إلى مصر إلا قليلا.

مرت الأيام وشعر يحيى بوحدة شديدة وتكالبت عليه أمراض شتى، وكأن جسده أعلن استسلامه فلم يعد به مناعة تُذكر، أشار عليه البعض أن يتزوج خاصّة وأنه كان مستعد للزواج ماديا، ولكنه لم يكن مستعد للزواج نفسيا، تذكر طلب والدته منه مرارا أن يتزوج ويستقر حتى تفرح به وترى له ابناء قبل وفاتها، كم آلمته تلك الكلمة وقتها ولكنه لم يكن يرد الزواج، كان هناك عائقا يمنعه، الآن هو يشعر بالندم الشديد لعدم تلبية نداءات والدته له

بالزواج ليس لشيء سوى أن يحقق امنيتها فقط.

حاول يحيى أن يشغل نفسه بالعمل، عاود عمله بالسنتر إلى جانب المدرسة، كان يحيى مُدرس لمادة اللغة العربية وكان طموحا ففتح ذلك السنتر واستعان بأمهر المدرسين، لذا كان ذلك السنتر يدر عليه بأرباح وفيرة جعلته متيسر ماديا، وبرغم انشغاله بعمله لم تخلو حياته من الفراغ الذي كان يطبق على أنفاسه بمجرد عودته إلى منزله.

جلس ذات يوم مع زياد صديقه وأراد بشدة أن يتكلم معه ويزيح بعضا مما يثقل كاهله، قال له:

- لقد سئمت المعيشة وحدي، كم أشتاق لأمي

- يا يحيى أنت يجب أن تتزوج، لا أعرف ما الذي يعيقك، هل تنتظر مثلا العروس المناسبة؟

- أنا لا أريد الزواج من أصله

- ما مشكلتك تحديدا، لأنني أذكر أيام والدتك رحمها الله عندما كانت تطلب منك الزواج كنت تتهرب منها؛ بالرغم من الفتيات الكثيرة التي كانت تحاول التقرب منك

شرد يحيى قليلا ثم قال:

- في الحقيقة أنا أخشى الزواج، كلما فكرت به أشعر بثقل على صدري

- يا صديقي أنت هكذا تعاني من مشكلة ما، وعليك أن تسعى لحلها

قال يحيى مستنكرا:

- هل تقصد أنني مريض نفسي؟

ـ يا صديقي كلنا نعاني من أمراض نفسية ولكن بدرجات مختلفة، بعضها يسهل تداركها والبعض الآخر تحتاج لذوي شأن لحلها.

استمع له يحيى، لم يكن يريد اللجوء إلى طبيب نفسي ليعلم مما يعاني، واستبعد تلك الفكرة تماما.

***

لجأ يحيى للبحث بنفسه عن علته، بحث على الانترنت عن ماهية مشكلته، كتب على محرك البحث ( الخوف من الحب والارتباط)، ظهرت له مواقع كثيرة تتحدث عن رهاب الحب والارتباط، دخل إحداهم ليفهم بالتفصيل، وجد أن رهاب الحب يطلقون عليه الفيلوفوبيا، وأن الدراسات تشير إلى أن أكثر الأشخاص عرضة للإصابة بالفيلوفوبيا هم من عانوا من صدمات أو أذية نفسية في الماضي، مثال على ذلك علاقة الزوجين المضطربة وأثرها على الطفل، وذلك يبعث في نفسه ردة فعل عكسية تجاه أي أحد يحاول التقرب منه، وتجنب العلاقات العاطفية لتجنب الشعور بالألم الذي تعرض له سابقا، وإذا لم يتم علاج مرض الفيلوفوبيا فقد يؤدي ذلك إلى حدوث مضاعفات خطيرة منها، العزلة الاجتماعية، الإكتئاب، تعاطي المخدرات، وقد ينتهي الأمر بالانتحار.

انتهى يحيى من القراءة وقال يحدث نفسه:

ـ أعوذ بالله، الهذه الدرجة، ولكن هل معنى ذلك أنني أعاني من الفيلوفوبيا؟

وبعد تفكير طويل قال:

ـ أنا لن أستعين بشخص ليساعدني، أنا من سأساعد نفسي.

قالها ثم قام ببحث آخر عبر الانترنت، وابتسم عندما وجد ضالته المنشودة.

استمع يحيى وحاول التركيز بتمعن في شرح المحاضر، لم يستطع فهم شيئا مما قاله، ندم وشعر أنها لم تكن فكرة جيدة باشتراكه في دورة للإرشاد النفسي، كان يظن أنها ستساعده للوصول لمشكلته وحلها، تأمل الحاضرين حوله وتسائل:

هل كل أولئك الحاضرين مرضى ويريدون الوصول للعلاج مثلي، أم أنهم يتخذونها كدورة تعليمية فقط؟.

مل كثيرا من المحاضرة، ولم يشعر بنفسه وهو يستسلم لغفوة، استيقظ بعد فترة عندما لكزه زميله الذي بجانبه، سأله:

ـ ماذا هناك؟

قال له زميله:

ـ الدكتورة تشرح منذ نصف ساعة، ولاحظت أنك نائم فطلبت مني إيقاظك.

اعتدل يحيى في جلسته واندهش لأن من كان يشرح قبل أن يغفل كان دكتور وليست دكتورة، نظر نحوها ثم اعتذر، حاول التركيز معها ثم فوجىء بأنها هي نفسها التي رآها يوم عزاء والدته، اندهش وخشي أن يكون لازال نائما ويحلم، ولكن كل شيء حوله كان يؤكد له أنه لا يحلم، حاول التركيز فيما تقوله فوجدها تتحدث عن العلاقات والاحتياج الذي يؤدي في بعض الأحيان إلى التعلق المزمن، كان شرحها قريب مما يعاني منه فأنصت لها بكل جوانحه، انتهت المحاضرة وعندما عاد يحيى إلى منزله استعاد كل كلمة قالتها تلك الدكتورة، ندم أنه لم يسأل عن اسمها ومتى ستأتي لهم ثانيّة، ولكنه كان تحت تأثير صدمة رؤيته لها في الواقع وليس بالحلم الذي راوده أكثر من مرة.

***

التزم يحيى الحضور في تلك الدورة وعلم مواعيد محاضرات

دكتورة حنين التي سأل عنها وعلم أنها تحمل شهادة دكتوراه في علم النفس وانضمت لفريق عمل الإرشاد النفسي منذ عام.

في محاضرتها التالية صب كل تركيزه على كلمة تنطق بها، شعر أنه وجد عندها ضالته، وأن حل مشكلته ستكون على يديها، بعد انتهاء المحاضرة حاول الوصول إليها للتحدث معها فلم يستطع، لم يهدأ له بال حتى التقاها بعد محاضرتها التالية، لحق بها قبل أن تستقل سيارتها، استوقفها وقال لها:

ـ مرحبا، أنا يحيى أحضر معكِ هنا في الدورة وكنت أود سؤالك عن شيء

ـ تفضل

تردد يحيى قليلا ولم يستطع أن يمنع نفسه من تأمل وجهها، وتأكد ظنه أنها هي نفسها من رآها يوم عزاء والدته، خشي أن تفهم نظراته لها خطأ فقال:

ـ أنا لدي صديق يشكو من نفس ما كنتِ تتحدثين عنه اليوم

ـ تقصد أنه يعاني من الاحتياج والتعلق؟

ـ بلى.. والموضوع تطور معه وأصبح يعاني من الفيلوفوبيا

قال لها ذلك قاصدا أن يستعرض معلوماته أمامها، فوجىء بها تقول بكل ثقة:

ـ وما أدراك بذلك؟

ـ عفوا.. ماذا تقصدين؟

ـ ما هو مجال دراستك؟

ـ لغة عربية، ولكن ما علاقة ذلك بالأمر؟

ـ علاقته أنك لست مؤهل لتشخيص حالة صديقك، يجب أن أراه

وأجلس معه لأكتشف مما يعاني تحديدا

ـ هناك مشكلة، هو رافض تماما لفكرة العلاج النفسي

ـ طالما هو كذلك فلن أستطيع مساعدته، فأنا لن أتعامل مع أحد يقاوم تشخيص مرضه ومن ثم العلاج

ركبت السيارة وهمت أن تغادر فقال:

ـ ولكن يا دكتورة أنا يهمني أمره كثيرا وأريد منكِ أن تساعديه وترشديه للطريق الصحيح

ـ نظرت له بكل ثقة وقالت:

ـ إن كنت تنتوي العلاج حقا سأنتظر قدومك إلى عيادتي في أقرب وقت.

ناولته كارت يحمل اسمها، ثم استطردت:

ـ عنوان ومواعيد عيادتي بهذا الكارت إذا أردت زيارتي.

قالتها ثم غادرت، ووقف هو مندهشا منها كيف عرفت أنه هو المريض وأنه كان يختلق أنها مشكلة صديقه.

***

بعد تفكير طويل من جانب يحيى قرر أن يذهب لحنين في عيادتها فقد شعر أنه مُقدر له ذلك، وقف أسفل العمارة التي بها مكتبها، تطلع إلى اسمها الذي ينير على يافطة عريضة( حنين حسن أحمد)، ثم صعد إليها ونفض عنه تردده الذي كان ينغصه.

جلس يحيى ينتظر دوره، كان ينتظر معه بعض الأشخاص استعدادا للدخول إليها، مال على أذن أحدهم وسأله:

ـ ما رأيك في الدكتورة حنين، هل هي جيدة في مجالها؟

- نعم، أنا أتابع معها منذ بضعة أشهر، ولقد تحسنت حالتي كثيرا

- طمئن الله قلبك.

لاحظ يحيى أن كل شخص يدخل لها يغيب لما يقرب نصف ساعة أو أكثر، اطمئن أكثر وشعر أنها تعطي لعملها حقه.

أشارت الممرضة له بالدخول، تنفس الصعداء وقال:

- وأخيرا، لقد ظننت أنني سأبيت هنا.

دلف إلى حجرتها، تناهى إلى مسامعه دقات قلبه المضطربة، حاول إخفاء توتره برسم ابتسامة تزين ثغره، جلس أمامها ونظرت هي إليه وقالت:

- مرحبا يحيى، سعدت بقدومك

- هل مازلتِ تذكرين اسمي؟

- نعم، فأنا لا أنسى الاسماء أبدا، أخبرني هل اقتنعت؟

اندهش منها وسألها:

- بماذا؟

- بخضوعك للعلاج دون أية مقاومة

- نعم، أنا في أتم الاستعداد، ولكن لديّ سؤال، كيف علمتِ أنني..

قاطعته قائلة:

- منذ اللحظة الأولى علمت ذلك بحكم خبرتي، والآن ما رأيك، بماذا نبدأ اليوم؟

- نبدأ بالمشكلة التي أعاني منها

- ألا تريد أن نتعمق أكثر ونبدأ بفترة الطفولة، ذلك سيفيدك كثيرا

فكر يحيى قليلا وقال بعد تردد:

ـ حسنا.

كان يشعر نحوها بألفة عجيبة، رجح ذلك للشبه الكبير بينها وبين والدته؛،فهي تمتلك نفس عينيها العسلتين، أنف صغير، وبشرتها بيضاء مضيئة كوالدته بالضبط، لاحظت حنين نظراته الغريبة إليها فحاولت أن تشيح ببصرها عنه من حين لآخر رغم أن ذلك قد يؤدي إلى قطع التواصل بينهما.

قال يحيى:

لم أعش طفولة سوية مع الأسف لعدم وجود أبي في حياتي، وكانت هناك مشاكل كثيرة بين أبواي، كل من حولي كان يبتعد عني ولم أعرف السبب في ذلك، لم يكن لي صديق مقرب سوى واحد فقط، تعلقت بوالدتي بشدة واكتفيت بها من كل هذه الدنيا، لذلك عندما توفاها الله شعرت بأن حياتي انتهت، الآن أنا أشعر بوحدة شديدة من دونها، هذا بالرغم من أنني أواصل الليل مع النهار في العمل لأشغل نفسي

ـ لماذا لم تفكر في الزواج لتكسر تلك الوحدة؟

ـ أنا اكتشفت مؤخرا أنني أعاني من رهاب الحب، لم أستطع أن أتعرف على أية فتاة يوما، كنت كلما اقتربت مني واحدة أشعر بانقباض بقلبي وأنفاس سريعة متلاحقة وأتعرق بشكل ملحوظ، كان الموضوع مرهق بالنسبة لي، لذا طوال حياتي كنت أتهرب منهن، ولم أكن وقتها أعرف السبب في ذلك

ـ هل كنت تخشى أن تكرر التجربة فتبوء بالفشل كما حدث مع أبويك؟

ـ ربما، لقد كنت أكره الحديث عن الزواج وأخشى منه

- أنت بذلك تعاني من الجاموفوبيا أيضا

- وما هو الجاموفوبيا؟

- ينتاب البعض شيئا من مشاعر التردد والخوف من الزواج أو الارتباط، يتعامل المعظم مع هذا التردد بالشكل المناسب، لكن الجاموفوبيا (رهاب الزواج) تختلف عن هذا النوع من التردد، فهو ليس مجرد امتناع بل هو خوف مُعيق يشل الإرادة

سألها بقلق:

- وهل هناك علاج لما أعاني منه؟

- بالطبع هناك علاج ولكنه سيأخذ وقت، ولكن أهم شيء هو استجابتك للعلاج، فكلما استجبت كلما زادت احتمالية تجاوز هذه الرهبة.

عندما عاد يحيى إلى منزله كان يشعر براحة نفسية عجيبة، أمسك بصورة والدته وتطلع لها مليا، نزلت دمعة حارة على وجنتيه، أراد بشدة رؤية دكتورة حنين مرة أخرى لأنها تذكره بها، تعجب من تلك الصدفة التي جمعته بها، وعلى عكس طوال حياته عندما كان يتهرب من النساء، الآن أصبح يتعامل مع إحداهن ودون أن يشعر بأي ضيق أيضا.

***

في الجلسة التالية حاولت حنين أن تجعل يحيى يتحدث عن أدق التفاصيل في حياته ولكنها لاحظت تحفظه، علمت أنه من هؤلاء البشر الذين يخشون من البوح ويرون أنه تعري وافتضاح لأمورهم الخاصة، ما كان يحيرها هي نظراته الغريبة لها والتي تحمل خلفها أسئلة كثيرة، ولكنه لم يحاول أن يسألها سؤال واحد.

أثناء الجلسات التالية لا حظت حنين تقدم ملحوظ في حالة

يحيى ولكنها كانت تشعر بتحفظه أثناء التكلم عن فترة طفولته فقالت له:

ـ للأسف أنت لا تساعدني لأساعدك، أنت متحفظ بعض الشيء في حين أن العلاج بالكلام من أقوى الطرق الفعالة؛ ليس لتجاوز الجاموفوبيا فحسب، إنما هي الترياق لأي من أمراضنا النفسية

ـ أنا أفهمكِ ولكن رغما عني لا أستطيع البوح، كيف سأفعل ذلك بعد كل هذا العمر لم أكن أبوح لأحد سوى أمي فقط

ـ من الممكن أن نبدأ بأشياء بسيطة كبداية

ـ سأحاول.

تحدث يحيى باستفاضة عن تلك الفترة المظلمة في حياته، وقتما كانا أبويه لا ينفكان يتشاجران وكان كل ذلك أمامه دون مراعاة لشعوره، اتخذ جانب والدته وبدأ يكن مشاعر الكره لوالده التي رافقته إلى يومنا هذا.

كانت حنين تستمع له بتركيز شديد وعلمت بفطنتها أن مشكلته مع والده تركت عميق الأثر في نفسه، قالت له:

ـ يحيى.. في البداية حتى تصل لتحسن ملحوظ عليك أن تجلس مع والدك وتتحدث معه

ـ مستحيل، لن أستطيع فعل ذلك، وخاصة الآن بعدما رحلت أمي

ـ حتى وإن كان ذلك سيسرع من عملية شفائك

ـ مؤكد هناك طرق أخرى

ـ أنا لا أريدك أن تهرب بعد الآن، أريدك أن تواجه كل مخاوفك، هنا يكمن علاجك

فكر يحيى قليلا ثم قال:

- سأحاول فعل ذلك برغم أنه صعب عليّ للغاية

- سعيدة بتفهمك، والآن هل لديك ما تريد إخباري به قبل أن ننهي الجلسة؟

شرد قليلا يفكر في أمر ما ثم حسم أمره وقال:

- كان هناك موضوع يؤرقني وأود التحدث عنه

- إني أسمعك.. تفضل

- منذ وفاة أمي وأنا أرى بأحلامي امرأة تشبهها، هل هناك تفسير لذلك؟

شعر باضطرابها وكأنها أدركت أنه يتحدث عنها، سألته:

- هل تعرف تلك المرأة؟

- لا، لقد ظهرت لي فجأة يوم عزاء أمي، ومنذ وقتها لا تفارق أحلامي

- هل تراها وترى والدتك بنفس الحلم؟

- نعم في الكثير من المرات

- هناك تفسير لذلك، فأنت تشتاق لوالدتك بشدة ولأنك تعلم جيدا أنك لن تراها بعد اليوم؛ اختلقت تلك المرأة التي تشبهها

- ولكني رأيتها بالفعل كما أراكِ الآن

لم تستطع حنين إخفاء اضطرابها تلك المرة وشعر بها يحيى، ثم تعللت بارتباطها بميعاد هام وأنهت الجلسة في الحال.

عندما غادر يحيى لم يستطع العودة إلى المنزل، جلس في الكافيتريا القريبة من العيادة وطلب فنجان من القهوة، بعد قليل فوجىء بدخول حنين إلى الكافيتريا ثم جلست وحدها، راقبها

لمدة نصف ساعة دون أن تلاحظه وعندما تأكد أنها لا تنتظر أحد ذهب للتحدث معها.

فوجئت حنين بيحيى أمامها ثم قال:

ـ هل تمانعين أن أجلس معكِ؟

ـ لا أبدا تفضل

جلس يحيى قبالتها وقال:

ـ هل كنتِ تنتظرين أحد؟

حاولت إخفاء توترها ثم قالت:

ـ لا..

قالت بعد برهة:

ـ أنا آسفة أنني أنهيت الجلسة فجأة

ـ لا عليكِ ليست هناك مشكلة

حاولت التهرب من عينيه التي كانت تخترقها فقال هو على نحو مفاجىء:

ـ دكتورة حنين.. هل تودين أن تعرفي هوية تلك المرأة التي أراها بأحلامي؟

ـ لست مضطر أن تخبرني فنحن لسنا في جلسة علاج الآن

ـ أعلم ولكني أريد أن أخبرك من تكون تلك المرأة

نظرت نحوه فاستطرد:

ـ تلك المرأة هي أنتِ، وصدقيني أنني لم أكن أعرفك وقتها، لقد رأيتك بالصدفة بذلك اليوم وأنتِ تدخلين إلى المسجد الذي كان

بالقرب من سرداق العزاء، لفت انتباهي الشبه الذي يجمع بينكِ وبين أمي، وبعدها أصبحتِ زائرة أحلامي

- هناك تفسير علمي ل..

- هل تعلمين شيئا، أنا لم تعد تهمني التفسيرات بعد الآن، يكفي أنني أجلس معكِ دون أن أشعر بانقباض في قلبي وأنفاسي المتلاحقة التي يصاحبها التعرق، أشعر أنني شفيت من تلك العلة تماما

- نتيجة مذهلة وحقا لم أكن أتوقع سرعة استجابتك للعلاج

- العلاج لم يكن السبب الرئيسي في تقدم حالتي، أنتِ في المقام الأول السبب في ذلك

- شكرا جزيلا لك

- بل جزيل الشكر لكِ أنتِ، أنتِ غيرتِ مني و..

نظرت إلى ساعتها وقاطعته قائلة:

- آسفة، مضطرة أن أغادر الآن.

غاردت بالفعل وتابعها هو بناظريه، لم يكن يعلم من أين أتى بكل تلك الجرأة والثقة أثناء تحدثه معها، وهو الذي لم يكن يقترب من أية أنثى أبدا، ولكنه شعر بسعادة لم يشعر بمثلها من قبل.

***

جلس يحيى مع زياد وأخبره بالتطور الذي أحرزه من خلال علاجه النفسي، سعد زياد به كثيرا وشجعه أن يكمل حتى يشفى تماما من علته، ويتزوج من امرأة يرتاح لها قلبه حتى تنتهي وحدته المريرة.

ترقب يحيى الجلسة التالية بفارغ الصبر ولكنه فوجىء باعتذار

حنين عن الجلسة لظروف طارئة، حاول بعدها أن يشغل نفسه بالعمل لكنه كان غير مرتاح على الإطلاق، لم يكن يعرف السر خلف مزاجه السيء وعصبيته، شعر بحنين لرؤية حنين، وقتها لم يجد سوى صورة والدته فانفرد بها وبثها شوقه إليها، بتلك المرة لم يبكي كما كان يبكي من قبل، تحدث معها عن ما يخصه وعن حنين أيضا، ولكنه اكتشف أنه لا يعرف عنها سوى أنها دكتورة علم نفس واسمها حنين، في حين هي تعرف كل صغيرة وكبيرة عنه، بل وما يخفيه عن العالم بأسره، قرر في قرارة نفسه أن في الجلسة القادمة يحاول التعرف عليها قليلا.

لم يستطع يحيى الانتظار للجلسة التالية وذهب ليحضر محاضرتها بتلك الدورة التي اشترك بها ولكنه لم ينتظم في حضورها، جلس مع زملائه في انتظار حنين وبعد دقائق دخلت عليهم، نظرت نحوه ولاحظت وجوده ومن بعدها تحاشت تماما أن تلتقي أعينهما، بعد انتهاء المحاضرة انتظرها بجوار سيارتها إلى أنا جاءت، ثم قال لها:

ـ أريد أن أتحدث معكِ بشدة ولن أستطيع الانتظار لموعد الجلسة القادمة.

قالت: ولكني لديّ ميعاد مهم

ـ لا بأس لن أؤخرك.

جلسا معا بمكان هادىء بالقرب من النيل، كان المنظر رائعا فشغلت حنين نفسها بتأمله لتزيل توترها منذ أن جلست مع يحيى، وضع أمامهما الجارسون فنجانين من القهوة، وشرع يحيى في احتسائها يستمد منها الشجاعة قليلا ثم قال:

ـ لقد مرت عليّ الأيام الماضية بصعوبة

ـ لماذا.. هل جد شيء؟

- نعم..

شرد قليلا يستجمع قواه ثم استطرد:

- لقد كنت أشعر بالضياع منذ جلسة العلاج الأخيرة، كنت أود بشدة الجلوس والتحدث معكِ؛ فأنا لم أعد أشعر بالحياة إلا وأنا معكِ.

توقفت حنين عن احتساء القهوة، شعرت بمزيج من السعادة والارتباك لحديثه ولم تستطع أن تنطق بحرف، فاستطرد هو:

- أنا أشعر أنه كان مقدر لنا أن نتلاقى

- هناك تفسير ل..

- التفسير الوحيد لذلك أنني بالتأكيد أحبكِ

وضعت فنجان القهوة جانبا وحاولت تمالك نفسها ثم قالت:

- أنا لا أتصور أنك تماثلت للشفاء سريعا هكذا!!

- أعتقد أن السر يكمن فيكِ أنتِ فأنتِ..

قاطعته قائلة:

- أستاء يحيى.. ما تشعر به الآن ليست مشاعر حب على الإطلاق؛ هي مجرد مشاعر متخبطة نظرا لأنك في طريقك للشفاء، وطبيعي أن تتعلق بأول شخص تراه أمامك ويساعدك للخروج مما أنت فيه، ولكنها بداية مشرفة بالتأكيد

- هل تظنين أن ما أشعر به ليس حقيقي؟

- نعم بكل تأكيد، ومع الأسف لن أستطيع أن استكمل العلاج معك منعا للتشتيت أكثر من ذلك، وسأرشح لك طبيبا آخر زميل لي وماهر للغاية

- ولكني لا أريد طبيبا آخر، أنا شفيت تماما وأريدك أنتِ

- يا يحيى أرجوك ما تقوله غير صحيح، مشاعرك تحت تأثير مرضك فأنت لم تشفى بعد

قال بتحدي:

- وما أدراكِ أنتِ، ما أدراكِ بما يعتمر بداخلي

- أنسيت أني طبيبتك

- بل أنتِ من يجب عليكِ نسيان ذلك، عليكِ أن تنحي وظيفتك جانبا وتلتفتِ لمشاعري نحوك، لأنها حقيقة ومن القلب أقسم لكِ

- أستاذ يحيى أنا في النهاية طبيبة ولن أستغل مريضي أبدا

- ومن قال أنكِ تستغليني، أنا أريد رد صريح منكِ الآن، هل تكنين لي أية مشاعر أم لا؟

لم تعرف بما تجيبه، ولكنها حسمت أمرها في النهاية ولم تجد مفر من إخباره بالحقيقة، فقالت له:

- أنا ببساطة شديدة لا أصلح لمثل تلك الأشياء

نظر لها بتساؤل يحثها على الحديث، كان يشعر بترددها وارتباكها، ثم استطردت:

- أنا مُطلقة حديثا، منذ عدة شهور

- وما العيب في ذلك، أنا ليست لديّ مشكلة مع ذلك الأمر؟

- لا تتعجل، ألا تريد أن تعلم سبب فشل زواجي؟

كان يأكله الفضول ولكنه اكتفى بالصمت، استطردت:

- أنا عاقر لا أنجب، وطليقي لم يستطع أن يتحمل هذا الوضع لذا انفصلنا

قال لها بكل ثقة:

ـ ليس لديّ مشكلة مع ذلك الأمر أيضا

ـ أرجوك لا تتعجل، ثم أنني كرهت التجربة برمتها؛ انفصالنا لم يحدث في هدوء كما تتخيل، لقد عانيت كثيرا وقتها، ولم أتخطى تلك المرحلة بسهولة

ـ حنين أنا...

ـ أرجوك يا يحيى ابتعد عني، ومن الغد سأرشح لك طبيبا غيري

همت أن تغادر فاستوقفها قائلا:

ـ أرجوكِ لا تتركيني الآن فأنا في أشد الحاجة إليكِ، لن تتخيلي كم فرق وجودك في حياتي

ـ مع الأسف أنا على العكس تماما؛ فقد كان ظهورك في حياتي في وقتٍ خطأ تماما، أنا لا أريد أن أراك بعد الآن.

قالتها ثم غادرت، وجلس هو يكاد قلبه يصرخ من تصرفها، تسائل في نفسه كيف ظهر في حياتها في الوقت الخطأ، في حين هي ظهرت في حياته في الوقت الصحيح تماما؟

كان في حيرة من أمرها فقد كاد يجزم أنه رآها بعينيها، إنها تكن له مشاعر بالتأكيد، قلبه الذي دق لقلبها ليس من فراغ، لذا قرر يحيى أنه لن يبتعد عن طريقها ولن يستسلم بسهولة، وإن تحتم الأمر سيخوض حرب من أجلها ومن أجل قلبه الذي لان أخيرا وعرف معنى الحب على يدها.

***

فوجىء يحيى بتواصل طبيب معه رشحته حنين له، رفض تكملة العلاج معه بطريقة لائقة، وعندما حاول أن يتحدث مع حنين

وجد هاتفها مغلق وجميع وسائل التواصل معها غير متاحة، لم يكن يعرف الاستسلام فقرر ذهابه للدورة حتى يتسنى له رؤيتها هناك.

ذهب إلى هناك انتظر محاضرتها بفارغ الصبر، فوجىء الجميع باعتذارها وتلك كانت المرة الأولى التي تعتذر بها، لم ييأس وذهب إلى عيادتها؛ فوجىء أنها في إجازة طويلة كما أخبره حارس العقار، شعر بغيظ شديد وحاول أن يستعلم من أصدقائها الدكاترة عن عنوانها فلم يريح باله أحد.

جلس مع نفسه وفكر طويلا ماذا يفعل، كان يريد رؤيتها بأي شكل، تذكر كلماتها له ونصائحها له المستمرة بمواجهة مخاوفه، وبعد تفكير طويل قرر أن ينفذ لأنه لامفر من ذلك، كان يريد أن يشفى من علته للأبد ويعقد هدنة مع نفسه حتى يحيا في سلام.

لم يصدق محمد نفسه وهو يستقبل اتصال من ابنه يحيى قال له بشوق:

- يحيى ابني، أخيرا اتصلت بي

- كيف حالك يا أبي؟

- أنا لا أصدق أنك تسأل عني!!

- أبي.. أنا أود رؤيتك في أقرب وقت

- سآتي إليك في أقرب وقت.

لم يصدق يحيى سرعة استجابة والده له، لم يكن يتصور أنه يفرق معه هكذا، وتأكد من ذلك حينما وجد والده ذات يوم على بابه وحضنه بكل شوق.

جلسا معا يتحدثان في العمل وأحوالهما ثم بادر يحيى بمعاتبة والده على غربته وتركه هو ووالدته، لم ينكر محمد خطأه بل على

العكس أقر به وطلب منه أن يسامحه، عاتبه هو الآخر على تجاهله له على الدوام وعدم إخباره بوفاة والدته، كانت جلسة تبادل عتاب واعترافات شعر يحيى بعدها براحة كبيرة وتوج سلامه النفسي بمبيت والده في حضنه.

في اليوم التالي لم يصدق يحيى نفسه عندما استيقظ على قبلة في جبينه من قِبل والده، جلس إلى جانبه وقال:

ـ لقد جهزت لك الفطور

اعتدل يحيى وقال:

ـ هل أحلم أم ماذا؟

ـ إنها الحقيقة، ومازلت أجهز لك المزيد من المكافآت

ـ حقا، أخبرني ما تلك المفاجآت؟

ـ ما رأيك أن تسافر معي إلى السعودية لأداء فريضة الحج هذا العام؟

قال مبهورا:

ـ هل تتحدث بجدية يا أبي؟

ـ بلى بالطبع، ولن ننسى والدتك في أداء العمرة لها

احتضنه يحيى بقوة وقال بسعادة:

ـ أنا لا أصدق ما يحدث معي، أنا سعيد للغاية

ـ دامت السعادة في حياتك يا بُني.

بعدها استعد يحيى للسفر، أراد قبيل سفره أن يرى حنين ويتحدث معها، كم أراد أن يبثها أشواقه ويخبرها أنها أصبحت كل حياته، ولا يهمه حقا كل ما أخبرته به، كانت حياته كلها تسير على

خير ما يرام فها هو أصلح علاقته بأبيه، وأصبح لديه أصدقاء، وعمله كان يسير في تقدم، وحده غيابها ما كان يؤرقه وينغص حياته.

***

وقف يحيى إلى جانب أبيه وسط ذلك الحشد الكبير من الناس، كان يشاهد الكعبة عن قرب للمرة الأولى، لم يستطع أن يمنع عبراته التي انهمرت على وجهه من شدة تأثره من ذلك المشهد المهيب، وعندما شعر به والده ربت على كتفه وقال:

هل تعلم.. تلك المرة الثالثة لي ولكني مع ذلك ينتابني نفس إحساس المرة الأولى؛ مثلك تماما الآن.

قضى يحيى مناسك الحج مع والده، بعدها شعر براحة كبيرة لم يشعر بها منذ وقت طويل، شعر أيضا أنه شُفي تماما من كل ما يعاني منه، على المستوى النفسي والجسدي، تذكر حنين ولم ينس أنها لها فضل كبير لما آل إليه حاله الآن؛ فأخذ لسانه يلهث لها بالدعاء دون توقف، دعا أيضا ربه أن يلتقي بها ويجمعه بها على خير وتكون من نصيبه.

في إحدى الأيام جلس يحيى بالقرب من الكعبة ليلا بعد أدائه لعمرة لوالدته، كان يعشق ذلك الوقت نظرا لعدم الازدحام به فكان يشعر بالسعادة لأنه قريب من الكعبة لا يفصله عنها شيء.

أخذ يدعو الله ويشكره على نعمته، ملأت الراحة قلبه وشعر أن حياته تغيرت لأفضل ما يمكن، ثم فجأة لمح حنين بالقرب من الكعبة، كانت تعطيه ظهرها وتدعو الله، كذب عينيه وتسائل:

. هل أحلم الآن أم ماذا؟

انتهت مما تفعله ونظرت خلفها فجأة لتلتقي عينيها بعينيه، ارتبكت للحظة ثم ابتسمت في وجهه ومضت، كانت لحظات

قليلة اعتبرها حلم جميل ونفي أن يكون لازال مريضا، في اليوم التالي تكرر الأمر عندما لمحها بنفس ذات الوقت وهي تجلس بالقرب من الكعبة وتدعو كما باليوم الماضي، فرك عينيه ليتأكد من أنه لا يحلم، ولكنها كانت لا تزال واقفة مكانها، وعندما لمحته هي ابتسمت له ثم غادرت، كان يريد بشدة اللحاق بها ولكنه عدل عن ذلك، وشعر في قرارة نفسه بالحزن لأنه على ما يبدو لم يشفى من علته.

***

جلس يحيى يتناول الغداء مع والده بإحدى المطاعم الشهيرة بمكة، لاحظ والده شروده فسأله:

- ما بك يا يحيى؟

- هناك أمر يشغلني

- ما هو أخبرني يا بُني

شعر بتردده فاستطرد:

- هل لازال هناك حاجز بيننا؟

- لا يا أبي ولكن ما أمُر به شيء غريب وصعب الفهم

- أخبرني ما بك وأرح ذلك الثقل عن كاهليك.

تحدث يحيى بالفعل، أخبر والده بكل شيء، واستمع له والده دون أن يقاطعه، كان يشعر بالذنب لأنه تركه وحده يعاني بهذا الشكل، وعندما انتهى قال له:

- ما أخبرتني به لا يدل على أنك مريض

- كيف وأنا لازلت أراها إلى الآن؟!

- أنت تراها لأنك تفكر فيها بتركيز شديد

- ما يؤرقني هل ما أراه خيال

- ربما رأيت واحدة تشبهها

- تشبهها لهذه الدرجة؟!

لم يكد يقولها فإذا به يرى حنين أمامه، اقتربت من المائدة التي يجلسون عليها وقالت:

- مرحبا يا يحيى كيف حالك، إنها لصدفة سعيدة حقا أن أراك هنا في مكة

نظر يحيى نحو والده وسأله بتعجب:

- هل تراها مثلما أراها؟

- نعم.. هل هي..

قاطعه يحيى ونهض وقال:

- إنها هي.. حنين.

جلس يحيى مع حنين، كانت تشعر بالخجل منه ولم تعرف ماذا تقول، فقال هو:

- أنا لا أصدق عيني، لقد بحثت عنكِ بكل مكان بالقاهرة ولم أتوصل إليكِ ثم ألقاكِ هنا بالصدفة!!

- إنها تدابير الله يا يحيى

سألها يلومها:

- لماذا هربتِ مني؟

- أنت تعلم ظروفي جيدا فأنا...

قاطعها قائلا:

- أنا لا تفرق معي تلك الظروف، كل ما يفرق معي هو أنتِ، لقد أحببتك بغض النظر عن ظروفك

- يا يحيى أنا موقفي صعب للغاية، لا أريد تكرار تلك التجربة الأليمة

- ومن قال أنني أشبه زوجك السابق، من قال أنني لن أصون النعمة

- أنت تقول ذلك لأنك تحت تأثير حبك لي فقط، ولكن عندما يتلاشى هذا الحب شيئا فشيئا ستندم على زواجك مني

توقفت ثم استطردت بمرارة:

- وستبحث عن زوجة أخرى لتنجب منها

- هذا لن يحدث

- الحب أعمى وأنت الآن لست بخير، أنسيت أنك أخبرتني أنني أشبه والدتك؛ أنت رأيتها في لذلك أحببتني

- هناك أمر لن تتيخليه، عندما شفيت مما أعاني منه اكتشفت أنكِ لا تشبهينها ، لا أعلم كيف ربطت بينكما

- هذا لأنك...

- أنا لا أريد تحليلات أو تبريرات الآن، أنا أريدك أنتِ فقط، يكفي أن الله استجاب لي دعواتي بأن التقي بكِ، وليس هذا فقط، فقد التقيت بكِ في أجمل وأنقى مكان على وجه الأرض، ألا ترين معي أنها علامة؟

- هي بالفعل صدفة غريبة جدا

- لقد أراد الله لنا أن تشفى روحينا بهذا المكان الجميل، وأن تلتقي روحينا به وتجتمع على المودة والرحمة، أنا أحبكِ كثيرا وأشعر

**أنكِ تكنين المشاعر لي؛ فلماذا نضيع وقتنا؟**

**ابتسمت وقالت:**

**ـ أنت لا تترك لي فرصة للتفكير**

**ـ وهذا هو المطلوب، أجيبيني هل تقبلين الزواج مني؟**

**قالت بخجل:**

**ـ نعم.**

**تمت**